البلاغة والعمران عند ابن خلدون

الأستاذ: محمد الصغير بناني

الموضوع هو البلاغة والعمران عند ابن خلدون دراسة تحليلية للمبادئ اللسانية والبلاغية والعقيدية التي تحدد العلاقة بين اللغة والمجتمع من نظر ابن خلدون. وقد سمح لي التحليل باكتشاف العلاقة الوثيقية التي تجمع في ذهن ابن خلدون بين البلاغة والعمران وكيف أدى به تبحره في البلاغة وصناعة الشعر الى التفكير في وضع علم يبحث مثل البلاغة في مطابقة الكلام لمقتضى حال الوقائع التاريخية التي تجري في المجتمع.

لقد قمت بتقص شامل لكل المصطلحات والمفاهيم وحتى العبارات التي تضمنتها المقدمة وسجلتها في جذاذات صغيرة مكنتني من الرجوع بسهولة إلى سياقاتها الأصلية ومقارنة نصوصها وضبط استعمال ابن خلدون لها، واستخلصت نتائج أتمنى أن تكون منطلقا لقراءة ابن خلدون قراءة جديدة.

* يجب التنويه بأن الأستاذ قدم بحثه هذا في ندوة الأستاذ لكنه توفي قبل صدور العدد وأن المجلة تنشر بحثه وفاء لروحه.

وساختار منها أربعا تتناول مفـــهوم العـــــلم
ومفهـــوم التعليم
ومفهـــوم العلمية
ومفهوم السياسة

واختم كلمتي بالوقوف عند علاقة االبلاغة بالعمران لكن قبل ذلك كان لا بد من توضيح الإطار العام الذي تندرج فيه جميع هذه المفاهيم وأعني بذلك نظرية النشوء والتطور أو النظرية الارتقائية كما سماها الأستاذ محمد طالبي التونسي المعروف يعني Théorie de l'evolution أوL'evolutionnisme الشهيرة التي عرفت في الغرب في منتصف القرن 19 على يد داروين، فقد كانت فكرة الارتقاء أساس وضع ابن خلدون لعلم العمران وهي عنده نظرية علمية صالحة لأن تكون موضوع بحث جامعي يقوم به متخصصون في الفلسفة والعلوم البيولوجية. وهي على كل حال نظرية جديرة بأن يطلع عليها أساتذتنا وتكون محل نقاش في لقاء كهذا.

ولنستمتع قبل كل شيء إلى ابن خلدون يشرح نظريته هنا: قال (في صفحة 845 ط. بيروت) «إن الذوات التي في آخر كل أفق من العوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذوات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعدادا طبيعيا كما في العناصر الجسمانية البسيطة وكما في النخل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من أفق الحيوان وكما في القردة التي استجمع فيها الكيْس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية».

ويقول في مكان آخر «ثم لايزال التدريج في المخالفة (يعني التطور) حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة» (ص 47)

لقد احتار الأستاذ طالبي في تأويل هذه النصوص وحاول ارجاعها إلى بعض من سبقوا ابن خلدون وكمسكويه وإخوان الصفا.

والحال أننا كنا عثرنا في دراستنا للجاحظ على هذا النظرية وأشرنا إلى ذلك في كتابنا "النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ وقلنا إنها أساس نظرية المعرفة عنده وأنه استوحاها بلا شك من القرآن الكريم".

وفضل ابن خلدون أنه استغلها لتفسير ظاهرة العمران البشري فقد حصر الارتقاء العمراني في خمس طبقات حيث ينطلق العمران من درجة الصفر في العمران البدوي الذي يسود فيه التوحش.

ثم ينتقل إلى العمران السياسي حيث يبدأ تنظيم المجتمع على مقتضى النظر العقلي.

ثم ينتقل إلى العمران الحضري بالمدينة حيث تحل المدينة محل الدولة في الارتقاء الذاتي.

ثم ينتقل في مرحلة رابعة إلى العمران الاقتصادي والصناعي لينتهي في الأخير في العمران العلمي الذي هو عمران نظري تطبيقا لمبدأ «بداية الفكرة نهاية العمل ونهاية العمل بداية الفكرة» هذه باختصار النظرية الارتقائية والآن نرجع إلى المفاهيم الأخرى ولنبدأ بالعلم فما هو **العلم** في نظر ابن خلدون؟ العلم في نظره هو ظاهرة اجتماعية أو " حالة" عمرانية كما يقول تأتي في قمة الهرم نتيجة للتطور الاقتصادي والصناعي

وهو من ملازمات الفكر بينما الصناعة من ملازمات اليد لأنه يعلن منذ بداية المقدمة في تلك الصفحة المشرقة التي فسر فيها ضرورة الاجتماع البشري بأنها تقوم على البحث عن الغذاء والدفاع عن النفس ويضيف لهما سببا ثالثا فيما بعد هو ضرورة التخاطب مع الغير لأنه أي الإنسان اجتماعي بالطبع يعني متكلم بالطبع.

وبما أن الصنائع التي هي من ملازمات اليد مجالها العمل مولدة بدورها للفكر الذي مجاله العلم فإن التطور من العلم إلى العمل والعكس يصبح مندرجا في نظام ارتقائي يتطور كالتالي:

هناك في الأسفل - في درجة الصفر - الجهل الذي هو من ملازمات البادية.

ثم يتطور إلى التفكير في ضرورة الاجتماع في الحاضرة فيرتقي إلى منزلة السياسة: التي هي كما يؤكد ذلك مرارا حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي.

ويرتقي النظام العمراني من الحكم السياسي المجرد إلى المدينة حيث تحل المدينة محل الدولة في تنظيم الاجتماع البشري (وهي فكرة غريبة كما نرى).

ويرتقي العمران الذي بالمدينة إلى منزلة رابعة تتمثل في العمران الاقتصادي والصناعي، الذي يتولد عنه في المنزلة الأخيرة وفي قمة هرم التطور : العمران العلمي.

لكن بالتأكيد على أن العلم والعمل لايختلفان في نهاية التحليل إلا من حيث المقتضى، فما يقتضيه الحال عملا الآن يصير علما غدا وما يقتضيه علما الآن يصير عملا غدا.

لأن تعريف الصناعة عنده بأنها "ملكة في أمر عملي فكري يبين التحامهما في تصدير ابن خلدون".

فالعلم كما نرى هو المرحلة الأخيرة التي يقطعها التطور العمراني مهما كان نوعه قبل الانتقال الى طور آخر، تطبيقا لقاعدة نهاية الفكر بداية العمل ونهاية العمل بداية الفكر.

هذا هو السلم الارتقائي الذي يندرج فيه مفهوم العلم.

غير أن ابن خلدون تفطن في القرن 8هـ/15م إلى أمر هام جدا لم تدرك أهميته إلا منذ سنوات قليلة أعنى بذلك مكانة طرق التعليم في السلم الحضاري. فقد أدركابن خلدون أن الكيفية التي ينقل بها العلم من جيل إلى جيل هي كل شيء في التطور العمراني لأنها في الحقيقة المرحلة القصوى التي يؤدي إليها التطور العلمي بحيث يمكن التفكير معه في قمة القمة التي يمثلها التطور العلمي والمتمثلة في أساليب التعليم سواء من منظور التوصيل يعني Didactique أو من منظور التحصيل يعني Apprentissage كما نقول اليوم.

وعلى أهمية هذا التفكير المتقدم عنده فإننا لم نعثر على من ينسب إلى ابن خلدون كلاما عن التعليم (فهي فرصة إذن للتنويه به وتسجيل هذا الاكتشاف على حسابه) والسبب في هذا الإهمال يرجع في تصوري إلى قراءة مثل هذه المفاهيم خارج التصور الكلي للفكر الخلدوني.

والدليل على ذلك الغموض السائد لدى الباحثين حول بعض المفاهيم الرئيسية عنده بسبب قراءتها منعزلة عن التصنيف الكلي الذي يدرجها فيه ابن خلدون. ولنقف إن شئتم عند مفهومين أساسيين في المقدمة: مفهوم السياسة ومفهوم العصبية.

فمفهوم السياسة مثلا مفهوم واضح عنده، وعند قرّائه على ما يظهر.

فتعريف السياسة عنده من أدق التعريفات فهو "حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي" وهو تعريف أعجب به حتى المحدثون وقد ترجمه الى الفرنسية Vincent Monteil من الترجمة التي تبنتها اليونيسكو بقوله :

Faire agir la masse selon les vues de la raison.

لكن هذا التعريف لاتظهر قيمته إلا داخل شبكة المفاهيم التي تندرج فيها، عند وهي شبكة تتألف من خمس طبقات تبدأ في الأسفل.

عند الملك الطبيعي، الذي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ويشاهد عند بعض الحيوانات كالنحل مثلا الذي يبدي الإذعان لنظام جماعي تقوده الشهوة الحيوانية.

ويرتقي نظام الملك الطبيعي من الحيوان إلى الإنسان فينشأ ذلك الملك السياسي الذي يقوم على العقل في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

ويتطور النظام السياسي إلى نظام الخلافة وهي عنده، حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والأخروية. فهي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا.

ويرتقى نظام الخلافة عنده فيحل في نظام الولاية كما تقتضيها سياسة التصوف، فقد قسم ابن خلدون سياسة الشريعة إلى قسمين قسم خاص بالفقهاء وقسم خاص بالمتصوفة.

والتصوف عنده له معنى تربوي دقيق، فهو حمل الفرد على مقتضى الإيمان بمجاهدة النفس ومحاسبتها عن سائر الأعمال والترقي بها من مقام الى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة.عند ذلك تصبح صفة خلال الخير ملكة في الفرد وتستقر مقاما ذاتيا لايحتاج إلى سياسة الحاكم أو أوامر الفقيه.

ولايوجد بعد الولاية إلا النبوة لأنها تشتمل على العقل والشريعة والولاية وتتميز بالعصمة التي يختص بها النبي.

وهذا التصنيف الارتقائي يسمح لنا بضبط مدلولات بعض المفاهيم الخلدونية الرئيسية التي لايزال يسودها الغموض حتى الآن وفي مقدمتها.

مفهوم العصبية:

فالعصبية نسبة إلى العصب وهو مايشد المفاصل في جسم الإنسان أو الحيوان ويشبه الخيوط البيض التي يسري فيها الحس من المخ إلى البدن هذا ماجاء في القاموس عن مفهوم العصب.

وقد ترجم إلى الفرنسية من قديم إلى Esprit de Corps ونقل أخيرا في ترجمة Vincent Monteil إلى (Esprit de clan) وكلاهما لايفي بالمقصود كما سنرى.

أما المثقفون بالعربية فقد أبعدوا المفهوم من مصطلاحاتهم لغموض معناه على مايبدو.

وضبط مفهوم العصبية كان إحدى المفاجآت التي لقيتها في دراستي للمقدمة.

فقد استعاره ابن خلدون للتعبير عن العلاقات الأحادية التي تجري من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى بين أفراد المجتمع سواء كانت من الأب إلى الأبناء أو من شيخ القبيلة إلى عشيرته أو من الخليفة أو الأمير إلى رعتيهما في علاقة عرقية تأتي في الطرف المقابل تماما للسياسة التي تعتمد على العقل أو الشريعة التي تعتمد على الدين أو التصوف الذي يعتمد على الأخلاق وللنبوة التي تعتمد على الوحي.

ولإدراك ما يقصده ابن خلدون بالعصبية في هذا التسلسل العمودي لابد من الرجوع إلى المنوال اللغوي الذي هو أساس هذا التصور في العمران البشري بوجه عام.

فالمجتمع الإنساني يبني على غرار المجتمع اللساني المتمثل في الجملة البلاغية لأن المفردات المكونة للجملة تشبه في علاقاتها نظام الأفراد المكونين للمجتمع البشري وتكوين الجملة البلاغة يعتمد على طريقتين لاثالثة لهما فهي إما تعول على الطاقة الإيجابية للكلمات التي تكونت على مر العصور في تلك اللغة بما في ذلك الاشتقاق والترادف والمجاز فهنا العلاقات علاقات عمودية أو سدائية Paradignatique في الاصطلاح البنيوي لأن القارئ لتلك الكلمة يرجع دائما إلى المعجم لاستخلاص دلالتها، والجرجاني يسميها علاقة نسب.

وإما يعتمد على الطاقات التركيبية التي تنشأ عن ضم الكلمات بعضها لبعض في نص الجملة وهنا العلاقات علاقات أفقية أو نبرية يعني Syntagmatique كما في اللسانيات البنيوية الحديثة.

فالعصبية من نوع العلاقات العمودية والسياسة من نوع العلاقات الأفقية والفرق كبير بين هذه وتلك.

فعلاقة النسب في اللغة تساوي علاقة العصب في الاجتماع البشري وعلاقة التركيب البلاغي تساوي علاقة السياسية.

وهكذا تكون العصبية طرفا مقابلا للسياسة كما أن البيان طرف مقابل للمعاني في النظام البلاغي.

وبما أن عملية التخاطب بين الناس لاتتم بالكلمات وإنما بالتراكيب فكذلك البناء العمراني لايتم بالعصبية ولكن بالسياسة، والعصبية تسود في المجتمع البدوي وتتقلص شيئا فشيئا بحكم التقدم الحضاري إلى أن تزول تماما في المجتمع السياسي العلمي كذلك التعبير البياني يسود في المفردات ويتحقق في المعاني.

إن دراستي لهذه المفاهيم الخلدونية قادتني الى نتيجة لم أكن أتوقعها في بداية البحث وهي علاقة نظرية العمران عند ابن خلدون بالبلاغة العربية، فاكتشفت أن تبحر ابن خلدون في علوم اللغةوالبلاغة في معناها الواسع هو الذي أدى به إلى التفكير في وضع علم جديد سماه علم العمران والذي يتفق جميع الباحثين على أنه مايسمى اليوم بعلم الاجتماع وتعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال وعلم البلاغة بأنه العلم بكيفية التراكيب لمطابقة الكلام لمقتضى الحال هو الذي سمح له بالانتقال من ميدان اللغة «البيان» إلى ميدان العمران.

لأن العمران هو الآخر حال تعتري الكائن الحي أثناء تطوره، وعلم العمران إذن هو العلم بكيفيات التراكيب الاجتماعية لمعرفة مقتضى حال الوقائع التي أدت إلى ظهورها على ذلك الوجه.

هذا باختصار شديد بعض الأفكار التي يمكن استخلاصها من دراسة «المقدمة» التي تظل في اعتقادي كنزا ثمينا يستحق أن يحتل مكانة بارزة في برامج دراستنا الجامعية، لأنه من المؤسف أن يظل طلابنا يجهلون مثل هذه المراجع الجديرة بتقويم العقل واللسان معا. ولقد سررت أيما سرور عندما علمت أن المقدمة قد أعيد طبعها في الجزائر وهي الآن في متناول الجميع.